

الابصيرة

القومية ودورها في تفكيك وحدة الأمة الإسلامية

د. محمد سليمان الفارس

بحث مُستل من مجلة (مقاربات) العدد السادس

إصدار: المجلس الإسلامي السوري

القومية ودورها في تفكيك وحدة الأمة الإسلامية



د. محمد سليمان الفارس
أستاذ علم الاجتماع في جامعة ماردين

الإسلامية، فتحوّلت من الصدارة وقيادة العالم في طريق العلم والسلام وحماية الضعفاء وإرساء العدل إلى أمة مُستَدَلَّة ضعيفة مفككة، وكان أبرز ما أدى إلى تفككها وتشرذمها في هذا العصر الدعوة القومية، فكيف ظهرت هذه الدعوة وكيف ساهمت في تفكيك الأمة وتشرذمها؟ هذا ما جاء البحث لبيان، ويكمن جوهر البحث وأهميته بتحديد ما يأتي:

- الظروف الموضوعية التي لعبت دورها في إثارة مشاعر القوميات المتنوعة المختلفة في جسد الأمة، وتوظيفها توظيفاً سياسياً لغايات مدروسة في فكر من دعموا نشوء هذه القوميات أو أثاروا تلك النعرات.

- كيف أدت هذه المشاعر المتعصبة لجنس دون آخر إلى صدع بنيان الأمة الواحدة ثم تشكيل كيانات مستقلة متناحرة.

- وكيف أثرت هذه الدعوات على حضارة المسلمين التي كانت تقود العالم عبر نشر المبادئ الأخلاقية الفاضلة وتطبيقها في العالم حتى أصابتها بالتراجع، فغدت تُصنَّف ضمن دول العالم الثالث الضعيف المتناحر.

- أصل نشأة القوميات في الغرب، لبيان أن ما يناسب شعباً من الشعوب ليس بالضرورة أن يناسبنا، فنحن -المسلمين- لنا خصائصنا التي تختلف عن غيرنا.

مرّت أمة الإسلام عبر تاريخها بفترات عرفت فيها فتوحات أنقذت العالم من مشكلاته ونشرت العدل بين الناس، وبفترات أخرى واجهت فيها هذه الأمة خلافات داخلية أو حروب خارجية؛ فتصلت مساحتها أو قلّ نفوذها العالمي لكنها بقيت محافظة على مقدساتها وشعائرها، وكانت أزماتها تزيد وحدة المسلمين ولا تنقصها، واستمرت هذه الحالة من بداية تأسيس الميثاق الذي كتبه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وبني من خلاله مفهوم الأمة المسلمة التي تضم كل من آمن بالله سبحانه ورسالة نبيه صلى الله عليه وسلم بغض النظر عن جنسه وقومه، مروراً بعهد الراشدين الكرام للأيوبيين ثم العباسيين ومن تلاهم من الأيوبيين الذين فتحوا بيت المقدس وحرروه من الصليبيين، ثم المماليك الذين أوقفوا الغزو المغولي، وكذا من عاصروهم وخلفهم من العثمانيين الذين حملوا راية الدين الشريف ودافعوا عن الأمة المسلمة بمختلف أعرافها حتى عام ١٩٢٣م.

لقد كان الحكام المسلمون ومواطنوهم شيئاً واحداً لا يميز بينهم عرق أو لون أو انتماء إذ الرابط بينهم الإسلام، وليس هناك خلاف جوهري بينهم على من يتولى الحكم عربياً كان أم عثمانياً أم أندلسياً أم كردياً إذ كان الجامع بينهم هو الانتماء للإسلام لا العرق أو الإثنية، ثم جدّت في المجتمع الإسلامي خلال الحرب العالمية الأولى دواهِ تغيرت فيها حالة الأمة

مفاهيم البحث: القومية - وحدة الأمة الإسلامية

الأمة الإسلامية:

إن وحدة الأمة الإسلامية تعني اجتماع المتسبين إلى الإسلام على أصول الدين وقواعده الكلية، وعملهم معاً لإعلاء كلمة الله ونشر دينه، وبذلك يحققون معنى الأمة كما قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: ١١٠]، وقد وصف الله تعالى المسلمين في الآية الكريمة بأنهم خير أمة، وذكر موجبات تلك الخيرية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله تعالى، وأتى على جميعها بصيغة الجمع ليدل على وجوب اجتماعهم واتفاقهم^(١).

المسلمون أمة واحدة لاتفاقهم على كليات العقيدة ودعائم الشريعة وإن اختلفوا في الفروع والجزئيات، فقد كَوَّنَ الإسلام الأمة الواحدة من خلال جمعها على رابطة العقيدة، فقال سبحانه: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} [سورة الأنبياء/ ٩٢].

من خلال تتبعنا آيات القرآن الكريم نجد فرقاً في مفهوم الأمة وما يشبهه مثل «الشعب»، فالأمة مرتبطة بالإيمان وتطلق على جماعة ذات عقيدة دينية، أما الشعب فهو لفظ يجمع أفراداً وجماعات يربط بينهم أي رابط لغوي أو جغرافي أو ثقافي، فنستطيع أن نقول: أمة المسلمين أو أمة النصارى وأمة اليهود، دليل ذلك قول الله تعالى: {وَيَوْمَ تَبَعَثْ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ} [النحل: ٨٩]. ولا نقول: أمة العرب أو أمة الترك وأمة الفرس، بل نقول: الشعب التركي والشعب العربي والشعب الفارسي، دليل ذلك أيضاً قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات: ١٣] فجعل لفظ الشعوب جمعاً ليدل على التنوع، وأفرَدَ لفظ الأمة ليدل على الوحدة.

يقول المناوي رحمه الله عن الأمة: هي (كلُّ جماعة يجمعها أمر إما دين أو زمن أو مكان واحد، سواء كان الأمر الجامع

تعريف القومية:

إن إيجاد مفهوم محدد للقومية صعب نسبياً؛ ذلك أن قومية كل مجتمع من المجتمعات قد عبرت عن نفسها بشكل يخالف الآخر، لكن سنذكر بعض التعريفات السائدة التي توافق عليها أغلب المهتمين بهذا الشأن:

يعرف الإيطالي مانشيني Mancini القومية بأنها: مجتمع طبيعي من البشر، يرتبط بعضه ببعض بوحدة الأرض والأصل والعادات واللغة من جراء الاشتراك في الحياة وفي الشعور الاجتماعي^(٢). ويعد هذا التعريف من أهم تعريفات القومية وأشهرها لأنه حدد السمات والعناصر الأساسية للقومية. وأما المفكرون العرب فقد حاول العديد منهم خصوصاً دعاة القومية العربية وضع مفهوم محدد للقومية يتناسب مع الحالة العربية ومعطياتها، ومن هذه التعريفات تعريف جورج حنا، فقد عرف القومية بأنها: عقد اجتماعي في شعب له لغة مشتركة وجغرافية مشتركة وتاريخ مشترك ومصير مشترك، ومصالحة اقتصادية مادية مشتركة وثقافة نفسية مشتركة، وهذا العقد يجب أن يكون فيه كل هذه المقومات مجتمعة^(٣).

وإذا ما تناولنا ما يسمى بالمفهومين الألماني والفرنسي في تعريف القومية نجد عدة فروقات، فالمفهوم الألماني يركز على اللغة وأهميتها في بناء القومية، بينما ترى القومية الفرنسية أن مشيئة العيش المشترك هي محور القومية ومعيارها، ويظهر من هذين المفهومين الهدف الذي يسعى إليه دعاة كل قومية من هاتين القوميتين، فالألمانية تسعى إلى ضم جميع المتكلمين باللغة الألمانية في أوروبا - ومنهم سكان «الإلزاس» - إلى الدولة الألمانية، بينما نرى أن القومية الفرنسية التي سبقت القومية الألمانية بقرن من الزمان قد أتمت وحدتها السياسية بالاستيلاء على بعض البلاد التي لا يتكلم أهلها الفرنسية، ومنها طبعاً منطقة «الإلزاس»^(٤).

(١) ساطع الحصر، ما هي القومية، بيروت، دار العلم للملايين ١٩٦٣م، ص (٤٠).

(٢) جورج حنا، معنى القومية العربية، بيروت، دار الثقافة، ص (٢١).

(٣) ساطع الحصري، آراء وأحاديث في القومية العربية، بيروت، ١٩٥٩م.

(٤) موقع المسلم (وحدة الأمة الإسلامية فريضة وضرورة).

وكانت الكنيسة قد فرضت قوانين على الناس ليست من الدين في شيء، ومنعت البحث في العلوم وشؤون الدنيا بحجة أن الدنيا دار زهد، وفي بداية ما يسمى عصر النهضة بدأ صراع كبير في أوروبا بين الكنيسة والشعب بدفع من العلماء المتنورين، وانتصرت إرادة الشعوب الأوروبية على سلطة الكنيسة والملوك وأتباعهم، وفي حقبة الانتقال تلك من سلطة الكنيسة والملوك إلى سلطة الشعب حاول الناس أن يجدوا صيغة بديلة جامعة يتفقون عليها فيما بينهم للعيش المشترك بحيث تحفظ لهم حرية آرائهم ومعتقداتهم، وتكفل لهم المساواة فيما بينهم بصفتهن مواطنين في دولة واحدة، فظهرت القومية في أوروبا وارتبطت بما يسمى (بالعلمانية) **secularism**، وترجمتها الدقيقة «الديوية» أي إن شؤون الدنيا ينبغي أن يديرها الناس بقوانين وضعية لا الكنيسة.

وأدت التطورات التي عرفتها أوروبا في العصر الذي سمي عصر النهضة بدءاً من القرن السادس عشر إلى الفصل بين الكنيسة والدولة؛ أي إن القومية في ظل التطورات الغربية التي صاحبها كانت حركة توحيد وتحرر لأنها جمعت الشعب على مبدأ واحد بعيداً عن الخلافات الدينية، فحققت الوحدة لهم كما كانت حركة تحرير؛ فقد خلصت أوروبا من تسلط الكنيسة الكاثوليكية التي فرضت التخلف على العقل الغربي وحاولت التحكم في كل الأشياء، فنستطيع أن نقول: إن القومية (**Nationalism**) ظهرت في الغرب بوصفها مصطلحاً له أبعاده ومفاهيمه في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

إن عددًا كبيراً من الباحثين متفقون إلى حد كبير على أن الثورة الفرنسية تعد نقطة البداية للتعبير الواضح عن الإرادة القومية عملياً، فيذهب «كون» في كتابه (فكرة القومية) إلى أن أول تعبير كبير عن القومية هو الثورة الفرنسية، وله مقولة: (القومية بنت الثورة الفرنسية) ثم يذهب إلى أن الشعوب المتقدمة لم تشعر بأن الولاء القومي أهم وأقدس مصادر الوحي في الحياة إلا منذ الثورة الفرنسية، ويؤكد أيضاً أن الثورة الفرنسية كانت أولى التعبيرات الكبرى عن مذهب القومية، ومن أقوى عوامل تكثيف الوعي القومي^(٥).

تسخيراً أم اختياراً^(٦) فهو يميز بين أمتين: أمة تسخيرية وأمة اختيارية، مثال الأمة التسخيرية أمة الطير، قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [سورة الأنعام: ٣٨]، وكذلك أمة الكلاب، عن عبد الله بن مغفل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها، فاقتلوا منها الأسود البهيم))^(٧) وأما الأمة الاختيارية فهي التي اجتمع أفرادها على دين أو مذهب كأمة اليهود وأمة النصارى وأمة الإسلام، قال تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا} [سورة النساء: ٤١]، وجاء في حديث الشفاعة قوله صلى الله عليه وسلم: ((أرفع رأسي فأقول: يا رب أمتي أمتي))^(٨).

نشأة القومية في الغرب ودواعيها

تعد الدولة الأوربية في القرون الوسطى دولة ثيولوجية (دينية) تحكم باسم الرب؛ كون حكامها من ملوك وأمراء وقيصرة يستمدون شرعيتهم من الكنيسة الكاثوليكية، والبابا يعطي لأولئك الحكام الشرعية بوصفه حامل مفتاح الجنة ووريث بطرس، وكانت الكنيسة ترى أن خضوع الملوك لها ليس تطوعاً منهم، بل هو حق لها يقتضيه مركزها الديني وسلطانها الروحي، جاء في البيان الذي أعلنه البابا «نقولا الأول» قوله: (إن ابن الله أنشأ الكنيسة بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها، وإن أساقفة روما ورثوا بطرس في تسلسل مستمر متصل...؛ فإن البابا يمثل الله على ظهر الأرض يجب أن تكون له السيادة العليا والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين حكماً كانوا أو محكومين)^(٩) وظل النصر حليف الكنيسة طيلة القرون الوسطى بسبب سلطتها الروحية البالغة وهيكلها التنظيمي؛ لذلك كان الباباوات هم الذين يتولون تنويع الملوك والأباطرة كما كان في إمكانهم - في أحيان كثيرة - خلع الملوك وعزلهم، فكان الملوك يطلبون رضاهم ويخضعون لهم ليمنحهم الشرعية في الحكم، ومن كان يرفض الرضوخ لهم يغدو حكمه غير شرعي.

(٥) عبد الرؤوف المناوي، التوقيف على مهات التعاريف، تحقيق عبد الحميد صالح حدان، عالم الكتب القاهرة، مصر ١٩٠٠، ص (٦٢).

(٦) رواه أصحاب السنن الأربعة.

(٧) رواه البخاري ومسلم.

(٨) هربرت فيشر، تاريخ أوروبا الوسطى، ترجمة محمد مصطفى زيادة، دار المعارف الإسكندرية، ١٩٦٩، ص (٧١).

(٩) عبد الكريم أحمد، القومية والمذاهب السياسية، القاهرة الهيئة المصرية العامة للنشر، ١٩٧٠، ص (٦١).

الأمم لهم، وزينوها للناس بزخرف من القول، وهكذا أشعلوا بوادر الحركة القومية في نهايات القرن التاسع عشر مستعرةً بالحقد على الدولة العثمانية التي كان يمثل وجودها إحباطاً كاملاً لأحلامهم.

تشكلت بدايات الفكر القومي في البلدان الإسلامية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين متمثلة في حركة سرية تألفت من أجلها جمعيات وخلايا عدة في عاصمة الخلافة العثمانية، وكانت شاملة للترك والأرمن والعرب وغيرهم، وقد ظهرت في بلادنا علانية من خلال جمعيات أدبية تتخذ من دمشق وبيروت مقراً لها، ثم في حركة سياسية واضحة المعالم في المؤتمر العربي الأول الذي عقده في باريس سنة ١٩١٢م أدباء ومفكرون مسيحيون من لبنان مثل «بطرس البستاني» و«أحمد فارس الشدياق» و«إبراهيم اليازجي» وغيرهم، وكانوا جميعاً مرتبطين بالإرساليات النصرانية الغربية، وقد عملوا على إبراز تاريخ العرب قبل الإسلام وإثارة الشعور القومي العربي، فهو لاء هم أول من فصل في العصر الحديث بين العروبة والإسلام، ويعترف صليب كوراني بذلك فيقول: (الأثر الأول للحضارة الغربية في الحياة العربية بعث القومية العربية، وقيام الحركة الاستقلالية التي تشمل العالم العربي في الوقت الحاضر، وكانت هذه الحركة نتيجة مباشرة للتعليم الغربي)^(١٠).

انتشرت الجمعيات القومية السرية والعلنية مطالبة بإصلاح الوضع في الدولة العثمانية التركية، وبحق العرب في الحصول على حقوق سياسية وثقافية في إطار الدولة التركية العلمانية التي حلت بدعم أوروبي محل الخلافة العثمانية، وقد كان ظهور القومية التركية الذي مثلته جمعية «الاتحاد والترقي» سبباً أساساً في ظهور تيار قومي عربي، لكنه لم يكن في بداية نشأته مطالباً بتفكيك الدولة العثمانية، وإنما كان يطالب بحقوق خاصة للعرب، يقول زين نور الدين زين: (إن فكرة الانفصال العربي عن الدولة العثمانية لم تظهر إلا في إطار التطرف القومي للاتحاد والترقي بعد عام ١٩٠٩م). وإبان الحرب العالمية الأولى وبانضمام تركيا إلى ألمانيا بدأت بريطانيا توظف رغبة العرب في الانفصال عن تركيا بقطع عهود على نفسها بإقامة خلافة عربية على رأسها الشريف حسين إذا هم ساعدوا الحلفاء في

وتوصف الثورة الفرنسية بأنها الحركة التي لعبت فيها المشاعر القومية دوراً واعياً حاسماً، وعبرت فيها الإرادة القومية - لأول مرة في التاريخ - عن ذاتها بإجراءات محددة تستهدف فرض (اللغة القومية) ووضع أسس (التربية القومية)، بل ظهر فيها لأول مرة ما يمكن أن نسميه (الإيديولوجية القومية)، فكانت هذه الثورة المرحلة الأخيرة في بناء الوعي الفرنسي ونضوج الأمة الفرنسية وتبلور إرادتها، وكان ذلك إيذاناً بمولد القومية الحديثة^(١١).

ويظهر البعد القومي في الثورة الفرنسية من خلال الإجراءات التي تمت خلال الثورة وكانت تعبيراً حقيقياً عن إرادة قومية لا عن إرادة طبقة تسعى إلى فرض نفسها على المجتمع كله، فقد أسهمت الثورة الفرنسية بعناصر كثيرة محددة بارزة صارت منذ ذلك الوقت من علامات ظهور الإرادة القومية في كل مكان تقريباً، فقد دعمت الثورة الدولة القومية الجديدة على حساب الكنيسة، وسمحت للأفراد بمجال واسع في اختيار ولاءاتهم الدينية، لكنها غرست في نفوسهم مبدأ أن كل المواطنين ملزمون بالولاء الأول للدولة القومية وحدها، وابتكرت رموزاً جديدة أصبحت جزءاً لا يتجزأ من الحركات القومية في جميع أنحاء العالم مثل العلم القومي والنشيد القومي والأعياد القومية واستخدام لغة واحدة هي اللغة القومية^(١٢).

بدايات التوظيف السياسي للقومية العربية

شارت فكرة القومية العربية في بلداننا بوصفها نوعاً من التأثير بالتوجه القومي الأوروبي حيث نشأ دعاة القومية العربية مقلدين لذلك التيار، وغدوا يلهثون للحاق بركبه، والواقع أن الذين أثاروا القومية العربية في بلاد المسلمين وكان لهم اليد الطولى في الدعوة إليها إنما هم النصاري العرب؛ إذ إنهم يدركون فائدة التفاف العرب المسلمين على القومية بدلاً من الدين الذي لا يتوافق مع دمج المسلم وغير المسلم في أمة واحدة على حد زعمهم، فبدأ القوميون العرب من النصاري وغيرهم الدعوة إلى القومية، وأخذوا يكيلون المديح لها، وأشاعوا أن العرب في حاجة شديدة إلى قيامها إن أرادوا العزة والمنعة واحترام سائر

(١٠) المرجع السابق، ص (١٥٠).

(١١) المرجع نفسه، ص (١٥٩).

(١٢) زين نور الدين زين، نشوء القومية العربية، ط ٤، دار النهار، بيروت، لبنان، ١٩٨٦م.

إذًا إن المسلمين لا يؤمنون بالقومية بهذه المعاني ولا بأشباهاها، ولا يقولون: فرعونية وعربية وفينيقية وسورية ولا شيئاً من هذه الألقاب والأسماء التي يتمايز بها الناس دون أدنى فائدة لكنهم يؤمنون بما قاله الله تعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}، وبما علمنا رسول الله محمد -صلى الله عليه وسلم- من أن معيار التفاضل الحقيقي وميزانه هو التقوى والإيمان والعمل الصالح لا عصبية جاهلية مُثارة بالأجناس والأشكال واللغات وغيرها^(١٣).

بريطانيا وعودها لتفكيك كيان الخلافة العثمانية

عملت بريطانيا على التوظيف السياسي لفكرة القومية بكل الاتجاهات، ففي الوقت الذي كان فيه الإنجليز يتواصلون مع دعاة القومية العربية كانوا يتواصلون أيضًا مع الأكراد ويمنونهم بدولة كردية مستقلة معترف بها، فانساق الأكراد خلف هذا الحلم خاصة بعد أن خالفت جمعية الاتحاد والترقي التركية بزعامة أتاتورك مبادئ الدولة في المساواة بين المواطنين، يومئذٍ شعر الأكراد بغبُن الأتراك لهم وأرادوا الانفصال عن الدولة التركية، فاستغلت بريطانيا هذه الدوافع بحكم وجودها في الجنوب الإيراني على شكل شركات تجارية مثل شركة الهند وشركة تصنيع التبغ، وكان وجودها في الشرق الأوسط يوفر لها معرفة تامة بالمنطقة تمكنها من التخطيط لإضعافها وإبعادها عن الخلافة العثمانية القوية في الشرق التي كانت تمثل تحديًا كبيرًا للتجارة الأوروبية، وكانت قبل الحرب العالمية الأولى تسيطر على كل المضائق البحرية في الشرق الأوسط وتتحكم بحركة التجارة العالمية، إذ تبسط سيطرتها

الحرب، وبعد مساعدة العرب للحلفاء في حربهم ضد تركيا خدعتهم بريطانيا وقامت بتقسيم الدول العربية في الاتفاق المعروف باسم «سايكس - بيكو» بين بريطانيا وفرنسا، وهنا بدأ التوظيف السياسي لفكرة القومية، وكانت الغاية من ذلك عزل العرب عن السلطنة العثمانية الممتدة على جغرافية تمتد من المحيط غربًا إلى حدود الصين شرقًا ومن بلاد الهند إلى قلب أوروبا.

وفي عمرة موجة تأثر فريقي من العالم الإسلامي بالأفكار الغربية ظهرت الفكرة القومية في أوائل القرن العشرين مطالبًا أساسيًا ووجت له النخبة العلمانية، وكان نفوذ هذه النخبة يتعاظم بتعاظم التفوق الغربي في المجال الصناعي؛

إذ كانت الفكرة المهيمنة على عقول النخبة

المتغربة في هذا الوقت تقول: لكي

نحقق الإصلاح والتقدم في العالم

الإسلامي لا بد من انتهاج

خط الغرب، ونسي هؤلاء أن

ما يصلح في مجتمع ما ويُنتج

خيرًا فيه قد يُنتج شيئًا خبيثًا

في مجتمع آخر؛ فليس ثمة

مجتمع واحد بل مجتمعات

لكل منها خط إصلاح مختلف،

يقول زين نور الدين زين في

كتابه «نشوء القومية العربية»: (في

الغرب كانت القومية السياسية جزءًا من

حركة علمنة الحضارة المسيحية، وأسفرت المعركة

عن انتصار القومية، أما في الشرق العربي فالإسلام لا يزال

عميق الجذور، فلم تستطع الأفكار القومية أن تحدث ثغرة

فيه بل استطاع الإسلام أن يقف في وجه كل محاولة للعلمنة،

والمسيحيون القلائل وإلى جانبهم قلة قليلة من المسلمين ممن

كانوا يجلمون بإنشاء دولة عربية علمانية تقوم على حدود

جغرافية وطنية معينة لا على أساس ديني لم يلقوا تشجيعًا ولا

تعضيدًا من قِبَل غالبية سكان البلدان الإسلامية)^(١٤).

لحكمة إلهية لم ينفرد بحكم

العالم الإسلامي عرق معين، بل

تداولته الشعوب الإسلامية من عرب

وترك وصقالبة وكرد وبربر

وفرس

(١٣) المرجع السابق.

(١٤) محمد الحسن، المذاهب والأفكار المعاصرة في التصور الإسلامي، ط ٤، دار البشير، طنطا، ١٩٩٨، ص (٢٦٤).

قومي للعرب مستغلةً ومستخدمة القومية رغبةً في الانفصال بعد انتهاج الأتراك الجدد سياسة التمييز بحق المواطنين غير الأتراك، وبذلك هيأت الأرضية لتكوين وطن قومي لليهود أيضًا.

حصلت محاولات من الكرد أنفسهم للتقرب من البريطانيين في بداية القرن العشرين، وكانت جهود الدبلوماسي الكردي شريف باشا واضحة في هذا المجال، إذ حاول الاتصال بالإنجليز عام (١٩١٤) لكي يعرض خدماته، لكن الحكومة البريطانية لم تستجب له، وبحلول عام (١٩١٨) يوم احتلت بريطانيا العراق طلبت وزارة الخارجية البريطانية من السفير برسي كوكس أن يلتقي بشريف باشا في مدينة مرسيليا الفرنسية للاستماع إلى أقواله^(١٦).

وقبل ذلك كله بدأت الدعوة في تركيا إلى القومية الطورانية التركية، والذين دعوا إلى القومية الطورانية التركية كانوا من اليهود، وهذا شيء ثابت، بل إن المؤرخ الأمريكي واتسون يقول: (إنه لا يوجد أحد في حركة الاتحاد والترقي - الحركة القومية التركية - من أصل تركي حقيقي وإنما هم من اليهود وغيرهم، أي: يدعون إلى القومية التركية وليس فيهم رجل واحد من أصل تركي)^(١٧).

ولو تمت المقارنة بين وضع الأمة في تلك الفترة التي يسميها بعضهم «عصر القوميات» والفترة السابقة لوجود القوميات لأدركنا سبب هذا الضعف والفرقة والهوان، فقد كان حكم الدولة الإسلامية يتنقل بين الأعراق المتنوعة في العالم الإسلامي العرب والترک والكرد والصقالبة والماليك، ولم

على معظم أجزاء المتوسط التي تضم القارات الثلاث آسيا وإفريقيا وأوروبا.

في عصر الدولة العثمانية كانت معابر التجارة القديمة من آسيا إلى أوروبا ترتبط بسلطة واحدة؛ ما سهل وصول التجارة المارة بسرعة أكبر وتكلفة أقل، ومن هذا المنطلق لم يتردد السلطان سليم الأول منذ أول يوم في اتخاذ التدابير اللازمة لإنعاش حركة التجارة في الطريق التقليدي القديم المار بالشرق الأدنى، فبدأ بتأمين شرق المتوسط بالقضاء على القراصنة الصليبيين، وإرسال الحملات إلى البحار الشرقية للحد من نفوذ البرتغاليين، ولم يتردد في عقد معاهدة تجارية مع البندقية عقب دخوله إلى مصر مباشرة في ١٤ فبراير ١٥١٧م، تلتها كثير من المعاهدات مع دول أوروبية مختلفة مثل فرنسا وإنكلترا في عهد خلفائه، زاد على إثرها التبادل التجاري بين الشرق والغرب عبر الأراضي العثمانية الممتدة على ثلاثة أرباع البحر المتوسط^(١٨).

أرادت حكومة بريطانيا أن تفصل المسلمين الكرد عن دولة الخلافة بصنع حواجز اجتماعية قومية بينهما، أو على الأقل أن تحيّد الكرد بعيداً عن صف الأتراك إن شئت هجوماً عسكرياً على الدولة العثمانية، ولعل من أهدافها إيجاد منطقة عازلة بين أتراك الأناضول والأقوام التي تتكلم اللغة التركية في آسيا الوسطى والقفقاس وخاصة أذربيجان، وكانت وسيلتها هي ترغيب الأكراد بوطن قومي لهم، وقد انتهجت بريطانيا في فترة ما بين ١٩٠٠ و ١٩١٤ سياسة الوعود بأوطان قومية مستقلة عن الدولة العثمانية مثل وطن قومي للكرد ووطن



العرب بحد ذاتهم حينما مالوا إلى القومية ووالوا وعادوا من أجل العروبة ازدادوا فرقة وفقرًا وعداوة فيما بينهم، وكاد بعضهم للبعض الآخر

(١٥) أحمد سالم، من جديد حول إشكالية الحكم العثماني للعالم العربي، جريدة القدس العربي، ١٥ مايو ٢٠١٩م.

(١٦) عبدالله محمد العليوي، جذور المشكلة الكردية، الجزيرة نت : <https://www.aljazeera.net/specialfiles/pages/4f935dae-8e08-4c54-83ca-16f692c7ab35>

(١٧) سفر الحوالي، القومية العربية.

الدولة الأموية (41 - 132هـ / 662 - 750م)

هي دولة بني أمية، وهي ثاني خلافة وأكبر دولة في تاريخ الإسلام، كان بنو أمية أولى الأسر المسلمة الحاكمة، إذ حكموا من سنة ٤١ هـ (٦٦٢م) إلى ١٣٢ هـ (٧٥٠م)، وكانت عاصمة الدولة في مدينة دمشق، وبلغت الدولة الأموية ذروة اتساعها في عهد الخليفة العاشر هشام بن عبد الملك، فامتدت حدودها من أطراف الصين شرقاً حتى جنوب فرنسا غرباً^(١٩).

الدولة العباسية (132- 656هـ / 750 - 1517م)

الدولة العباسية أو الخلافة العباسية أو العباسيون هو الاسم الذي يُطلق على ثالث خلافة إسلامية في التاريخ، وثاني السلالات الحاكمة الإسلامية^(٢٠).

الدولة الفاطمية (297 - 567هـ / 909 - 1171م)

هي إحدى الدول التي نشأت في عصر الخلافة العباسية، وتسمى أيضاً بالدولة العبّيدية، وهي الوحيدة بين دول الخلافة التي اتخذت من المذهب الشيعي الإسماعيلي مذهباً رسمياً لها، شملت الدولة الفاطمية مناطق واسعة من المغرب إلى مصر، ثمّ توسّعت الفاطميون أكثر فضمّوا إلى ممتلكاتهم جزيرة صقلية والشام والحجاز، فأضحى دولتهم أكبر دولة استقلت عن الدولة العبّاسية^(٢١).

وبين مؤرخي المسلمين خلاف كبير حول أصل أئمة هذه الدولة وحكامها: هل هم من آل بيت النبوة أم من اليهود؟

الدولة الأيوبية (569 - 661هـ / 1174 - 1263م)

الأيوبيون أو بنو أيوب هي أسرة مسلمة حكمت أجزاء واسعة من المشرق العربي خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي، تأسست الدولة الأيوبية على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي في مصر ثم امتد حكمها إلى الشام والحجاز وشمال العراق وديار بكر جنوب تركيا، وإلى شرق

يكن هناك خلاف على من يحكم من أي قومية أو عرق كان، بل كان الهَمُّ الأكبر عند جموع المسلمين فيمن يحكم أن يقيم العدل بشرع الله ويكون متأهباً للدفاع عن هيبة المسلمين وأرضهم، وسنذكر ملامح موجزة لتاريخ المسلمين قبل ظهور القوميات المتنوعة في العالم الإسلامي.

تعاقب الأعراق على الحكم في الأمة الإسلامية

لحكمة إلهية لم ينفرد بحكم العالم الإسلامي عرق معين، بل تداولته الشعوب الإسلامية من عرب وترك وصقالبة وكرد وبربر وفرس، حتى وصلنا إلى العصور الحديثة بفتح القسطنطينية عاصمة البيزنطيين عام ١٤٥٣م على يد الشاب المسلم محمد الفاتح ولما يبلغ عمره حينذاك خمسة وعشرين عاماً، وبمراجعة الثقافة العثمانية مثلاً نجد أنها لم تستند إلى العرق أو روابط الدم، بل كان الإسلام سر وجودها وحياتها، ولم يكن العثمانيون في أي وقت يصفون أنفسهم «بالأتراك»، بل يعدون ذلك ضرباً من ضروب التخلف الاجتماعي، أي إن التداول الحضاري والسياسي في الإسلام لم يستند إلى العرق بل استند بشكل أساس إلى رسالة الإسلام، وأعرض هنا بشكل موجز أهم الحكومات التي تداولت حكم العالم الإسلامي وهي من أعراق مختلفة، وحافظت على مقدسات الأمة ونشر تعاليم دينها وإقامة العدل بين الناس.

الخلافة الراشدة (11 - 40هـ / 632 - 661م)

تسمى أيضاً دولة الخلفاء الراشدين، وهي أولى دول الخلافة الإسلامية التي قامت عقب وفاة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم سنة ١١هـ، (٧ تموز سنة ٦٣٢م)، وكانت المدينة المنورة عاصمتها، وهي دولة الخلافة الوحيدة في التاريخ الإسلامي التي لم يكن الحكم فيها وراثياً بل كان قائماً على الشورى، وكان الخلفاء عرباً^(١٨).

(١٨) محمد سهيل طقوش، التاريخ الإسلامي الوجيز، دار الفانس، بيروت - لبنان، ٢٠٠١، ص (٦٧) وما بعدها.

(١٩) المرجع السابق، ص (١١١) وما بعدها.

(٢٠) المرجع نفسه، ص (١٤٧) وما بعدها.

(٢١) المرجع السابق، ص (٢٦٧) وما بعدها.

عام ٢٠١١، فكانت أكثر فترة تاريخية مُنبت باستقطاب للفكر القومي في سورية ما بعد الانفصال عن مصر عام ١٩٦١م، إذ ترسخت القومية أكثر بصفتها نظام دولة، وصيغت في دستور الدولة في عهد حزب البعث، الذي نشأ عام ١٩٤٧م وتمكن من التسلسل على مفاصل الدولة بعد انقلاب الثامن من آذار سنة ١٩٦٣م.

لقد تأثر المجتمع السوري كثيرًا بسلبات سيطرة القومية على نظام الدولة، فبرز تأثيرها السلبي بوضوح في مسألتين هما:

أ- الدين والقومية ونمط العلاقات الاجتماعية الجديد بين الدولة والشعب.

ب- المسألة الكردية.

الدين والقومية:

بنى حزب البعث - بوصفه حزبًا قوميًا شموليًا - علاقته مع جماعات المجتمع السوري على أساس الهوية العربية، جاعلاً الدين شيئاً سيئاً يعود بالدولة إلى الانقسامية، واتخذ من هذا الفكر ستارًا لإجبار الناس على البعد عن الدين في المواضيع التي تتعارض فيها رؤاه مع مبادئ الدين، وقد حاول من خلال فكرة ضرر الدين على الناس تسويق النهج العلماني الذي أخذ يفرضه على المجتمع السوري بقوة السلطة والسلاح.

كانت أفكار حزب البعث ناتجة عن تصورات خاطئة عن الإسلام وتقليد أعمى للغرب في مساواتهم الكنيسة الغربية في القرون الوسطى بدين الإسلام المكتمل، وهنا أورد نصًا لأحد قادة حزب البعث يوضح تصور الحزب عن الدين، يقول ميشيل عفلق^(٢٥): (الدولة الدينية كانت تجربة في القرون الوسطى، تجربة انتهت بالفشل، وكلفت البشرية كثيرًا من الجهود ومن الدماء ومن المشاكل، وحدثت تقريبًا في أوقات متفرقة في البلاد الإسلامية وفي أوروبا المسيحية...، الإسلام كان المحرك للعرب، أما اليوم فالقومية وحدها هي

ووسط وجنوب اليمن في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين^(٢٢).

الدولة المملوكية (648 - 923هـ / 1250 - 1517م)

المماليك هم سلالة من الجنود المسلمين أتراك الأصل، حكموا مصر والشام والعراق وأجزاء من الجزيرة العربية أكثر من قرنين ونصف من ١٢٥٠ إلى ١٥١٧م، تعود أصولهم إلى آسيا الوسطى قبل أن يستقروا بمصر، من أبرز سلاطينها عز الدين أيبك وقطرز والظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والناصر محمد بن قلاوون والأشرف صلاح الدين خليل الذي استعاد عكا وآخر معاقل الصليبيين في بلاد الشام، ثم السلطان الشركسي برقوق الذي تصدى فيما بعد لتيمورلنك واستعاد مناطق احتلها التتار في بلاد الشام والعراق ومنها بغداد، والأشرف سيف الدين برسباي فاتح قبرص^(٢٣).

الدولة العثمانية (698 - 1342هـ / 1299 - 1923م)

الخِلافة العُثمانيَّة، وتسمى أيضا بالدولة العليَّة العُثمانيَّة، هي إمبراطورية إسلامية أسسها عثمان الأول بن أرطغرل، واستمرت قائمة نحو ٦٠٠ سنة، نشأت الدولة العُثمانيَّة بدايةً بصفتها إمارة حُدودية تعمل في خدمة سلطنة سلاجقة الروم وترد الغارات البيزنطيَّة عن ديار الإسلام، وبانهيار حكمها انهارت دولة الإسلام الواحدة^(٢٤).

انعكاس القومية على المجتمع السوري

سوريا كغيرها من الأقاليم العربية تأثرت بدعوات القومية العربية، فظهرت فيها شخصيات عدة تفتتن بالتقدم الغربي وتبني الفكر القومي، ولاقت أفكارهم في نظام الدولة رواجًا واسعًا خاصة مع ظهور أحزاب تحمل فكرهم، منها أحزاب شمولية مجرمة قسرت المجتمع على فكرها كان من أبرزها حزب البعث، وامتد تأثير القومية إلى فترة الثورة السورية

(٢٢) محمد سهيل طقوش، تاريخ الأيوبيين في مصر والشام وإقليم الجزيرة، ط ٢، دار النفائس، بيروت - لبنان، ٢٠٠٨، ص (٧) وما بعدها.

(٢٣) أصل المماليك، أطلس التاريخ الحديث، الجزء الثالث، ص (٣١١) وما بعدها.

(٢٤) محمد سهيل طقوش، التاريخ الإسلامي الوجيز، دار النفائس، بيروت - لبنان، ٢٠٠١، ص (٣٣٩).

(٢٥) ميشيل عفلق ولد في دمشق ١٩٠٨م وتابع دراسته في باريس، يعد من مؤسسي حزب البعث ومنظريه، تأثر بزكي الأرسوزي وكارل ماركس، ومات ١٩٨٩م.

حرمان مئات آلاف الأكراد السوريين من حقوق المواطنة حتى عام ٢٠١٢م، فكان ما يزال نحو ٤٠٠ ألف شخص في محافظة الحسكة يعدون أجنبياً في السجلات المدنية للدولة، ويجرمون من أبسط الحقوق الإنسانية مثل البطاقة الشخصية وجواز السفر وحق السفر خارج البلاد لأنهم كُرد فحسب.

نتائج القومية في البلاد الإسلامية

ضعف الأقاليم الإسلامية واحتلالها:

ما دام باب القومية قد فتح على المسلمين فقد كان طبيعياً أن تنتهي إلى ظهور القومية العربية والكردية، والبنغالية في باكستان، والطورانية في تركيا لإبعاد الإسلام بصفته صلة وصل وحيدة بينهم؛ ففرقت بلاد المسلمين ووقعت تحت الاحتلال الأوربي، الذي كان سبباً أساساً في ظهور هذه الدعوات القومية، وقد شجعت الدول الأوربية الكبرى وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا ظهور القومية العربية في صورها العلمانية لتحقيق مطامعها في احتلال الشرق الإسلامي، وما قامت الثورة العربية على الأتراك إلا بتأييد بريطانيا ودعم حليفها فرنسا، فقد ثبت أن عدداً من الزعماء كانوا متصلين بالقنصليات الأجنبية لتلقي هذا الدعم^(٢٦).

الفرقة:

يقول الدكتور غالب العواجي: (العرب بحد ذاتهم حينما مالوا إلى القومية ووالوا وعادوا من أجل العروبة ازدادوا فرقة وفقراً وعداوة فيما بينهم، وكاد بعضهم للبعض الآخر، بل دارت بينهم حروب شرسة حين بغى بعضهم على بعض ببركات حب القومية وافتخار كل بقومه، فقامت الأحزاب والتكتلات الصغيرة والكبيرة على حمة القومية الجاهلية، فازدادت المسافة بينهم وبين الوصول إلى السعادة المنشودة في ظل القومية)^(٢٧) فليس الترك وحدهم من تمزقوا بهذا التآمر وإن كانوا أكثر من تضرر، وإنما الكُرد أيضاً تم تقسيمهم بين عدة دول قومية، وأما العرب فقد تم تقسيمهم إلى اثنتين

الأساس، ولا يمكن أن يفهم العرب لغةً غيرها)^(٢٦).

الأكراد في سورية:

الشعب السوري أغلبه شعب مسلم، ويتكون من عدة أعراق يغلب عليها العرب، ويعيش معه مجموعة من أبناء الديانات الأخرى، وقد أثرت فكرة القومية سلباً على أحد أبرز مكوناته ألا وهم «الأكراد»، فغيرت فكرة القومية نمط العلاقات السائدة بين الأعراق التي تتشارك الأرض السورية، فأقصت غير العربي وتجاهلته لأنه غير عربي فحسب، وأعلت من شأن العربي كُفُوًا كان أم غير كُفُوٍ لأنه عربي فقط؛ فظهرت في المجتمع السوري فئة محرومة من جل حقوقها في التمثيل السياسي وغيره لأنها غير عربية فحسب وهي «الكرد»، بينما فتح الباب لغير المسلمين على مصراعيه بوصفهم عرباً قوميين.

على مستوى الدساتير السورية نجد أبرزها دستور عام ١٩٥٠م، وقد قيل إنه لُخص من خمسة عشر دستوراً لدول رائدة في الديمقراطية والحرية، ورغم هذا لا نجد فيه ذكراً لأي خصوصية للكُرد، ففي المادة الأولى من الدستور عرفت الدولة السورية بأنها «جمهورية عربية، والشعب السوري هو جزء من الأمة العربية» وتقول المادة الرابعة: «اللغة العربية هي اللغة الرسمية»، وجاء الدستور السوري الخامس الذي وضعه حزب البعث العربي الاشتراكي سنة ١٩٧٣م، فركز كثيراً على عروبة سورية واشتركتها، ولم يعط للكُرد حق تعليم أبنائهم بلغتهم الأم في مدارس خاصة بمناطقهم، فنجد دساتير الحكومات -التي تداولت السلطة في سورية بعد نشوء الفكر القومي- تبنى على فكرة الدولة القومية المأخوذة عن الفرنسيين دون خصوصيات.

واشتدت النزعة الإلغائية في سوريا بعد استلام حزب البعث للسلطة في آذار سنة ١٩٦٣م، فقام بإقصاء المتدينين لأنّ التدين منافٍ لمبادئ الحزب، وإقصاء غير العرب من الأقوام الذين احتفظوا بأسلوب عيش توارثوه عن آبائهم، فنتج عن ذلك

(٢٦) ميشيل غفلق، خطاب ألقى على مدرج الجامعة السورية في ٥ نيسان عام ١٩٤٣م.

(٢٧) علي محمد جريشه وآخر، الغزو الفكري للعالم الإسلامي، دار الاعتصام-المدينة المنورة، ط٣، عام ١٩٧٩ ص (٧٧-٧٨).

(٢٨) غالب بن علي عواجي، المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها، المكتبة العصرية الذهبية، جدة، ج ١، ص (٣٦).

ولا يخفى على المتأمل لنشأة القوميات المتتبع لحركة تغييرها الدور الإيجابي لها في الغرب في جمع شتات الأمم المتفرقة بعد صراع الكنيسة والشعب وفوضى العصور الوسطى.

وحين حاول الأوربيون لفت أنظار شعوبهم عن الخلافات الداخلية بينهم بعد الثورة الفرنسية خاصة، وتأمين سوق خارج بلدانهم لتصريف إنتاجهم الصناعي بعد تأسيس الدول الحديثة، وتأمين مصادر الطاقة الأولية لتلك العملية الإنتاجية؛ لم يجدوا أمامهم أفضل من الشرق الأوسط، لكن هذا الشرق لم يكن متاحاً لهم بهذه السهولة لوجود دولة قوية تتحكم باقتصاده وتستمد من الإسلام قوة شرعيتها رغم تنوع الأعراق الموجودة في المجتمع الذي تقوده؛ لذلك بدؤوا بدراسة تحليلية لطبيعة تكوين هذه المجتمعات، وعلموا أن أفضل طريقة لغايتهم هي توظيف العرقيات الموجودة توظيفاً سياسياً بحيث تطالب كل جماعة ذات عرق واحد بدولة خاصة بها مستقلة عن الخلافة، فبدأ العمل من مركز الخلافة يوم ظهرت فكرة القومية الطورانية في قلب الأناضول عاصمة الخلافة العثمانية التي بدأت بالتميز بين الأتراك وأبناء الولايات التابعة لها على أساس عرقي.

وتبعاً لظهور فكرة القومية التركية ظهرت الدعوات للقومية العربية ثم الكردية وغيرها، فتكونت القوميات ودعت أتباعها للانفصال عن دولة الخلافة بعد سيطرة الاتحاديين، وكانت النتيجة أن تفرق الكُرد بين أربع دول والعرب في ٢٢ دولة والمغرب بين عرب وبربر؛ فأدت هذه الخطوات إلى احتلال العالم الإسلامي في الشرق الأوسط، وتأخير حركة نهوضه وتقدمه، وتصنيفه عالمياً ثالثاً متخلفاً، وزرع دولة جديدة بدواع «قومية دينية» في قلب العالم الإسلامي اسمها دولة «إسرائيل».

إن واجب دعاة المسلمين وقادتهم اليوم أن يفضحوا دعاة القومية، ويبينوا أضرار العصبية العرقية والإقليمية على الأمة، ويعملوا على إعادة الأمة إلى وحدتها الدينية لتتخلص من النذل والفرقة التي تعيشها أمة الإسلام.

وعشرين دولة، وأدى هذا التقسيم الجائر إلى خلق توترات دائمة في كل منطقة، وهكذا قامت الدولة القومية وفق نسق سلطة خارجية.

جامعة برواب وهمية:

حاولت الأنظمة العربية الناشئة أن توفق بين مصالحها الخاصة ودعواتها إلى القومية فأنشأت جامعة الدول العربية، لكنها كانت شبه وهمية؛ فقد اكتفت بوضع اتفاقيات تجارية وعسكرية وثقافية هشة تخللها صراع واسع بين أعضائها.

إخفاقات القومية:

لم تستطع القومية العربية أن ترقى إلى مستوى التحديات المنوطة بالشعوب العربية؛ فأخفقت في تحقيق الوحدة العربية ولم تفلح كل محاولات الوحدة حتى الجزئية، وأخفقت أيضاً في تحقيق أي مستوى من مستويات التعاون الاقتصادي، فلم تحقق التنمية، ولم تستطع أن تنجز مهمة التحرير والتحدي للهيمنة الغربية وربيعها الكيان الصهيوني.

قوميون وقومية بدوافع أجنبية:

تبين من حوادث العصر أن دخول القومية إلى البلاد الإسلامية عموماً والعربية خصوصاً إنما كان بدافع الحقد الصليبي واليهودي والرغبة في تزيق الوحدة الإسلامية والانتماء إلى الإسلام؛ فالانتماء إلى القومية العربية بدل الإسلام سيسهل لهم مهمة احتلال بلدان المسلمين بعد أن يفرقوا بين العرب وسائر إخوانهم المسلمين على مبدأ «فرق تسد»، وقد أثبتت الأيام علاقة القوميين العرب بالقوى العالمية وخضوعهم لها وعملهم على خدمتها حتى ولو كان ذلك يتنافى مع مبادئ القومية التي يتغنون بها، يقول جميل مطر في مقاله «مستقبل العروبة»: (لم تعد القومية قادرة بظروفها الراهنة وظروف السياسة والسياسيين في العالم العربي على ملء فراغ الفكر السياسي، وهو الفراغ الذي تدور فيه النخب السياسية والقوى الحاكمة العربية، وتجرح شعوب المنطقة بأسرها لتدور معها في هذا الفراغ المدّمر)^(٢٩).

(٢٩) جميل مطر، مستقبل العروبة، الهلال، يوليو ١٩٩٣م، عدد (٧).